تمهيد:

للوصول إلى التحليل الأنسب للشكل العمراني يتطلب منا منهجية تعتمد على مقاربة تحليلية يمكن اعتمادها لتفكيك هذا التعقيد سواء من حيث العناصر، أو العلاقات بين عناصر الشكل العمراني للمدينة، فتعتبر مقاربة النمو العمراني من بين اهم مقاربات التحليل المورفولوجي.

فمن اهم روادها (Philippe panerai. Jean-charles depaule . Marcelle Demorgon)

حيث اعتبروا أن المدينة كعمارة و مظهر مجالي يمكن فصله إلى عناصر بغرض اظهار الاختلافات الخاصة بالعلاقة بين التنظيم المجالي والممارسات الاجتماعية.و تم تحديد ثلاث مستويات للدراسة:

- المستوى العام :أين يتم قراءة المدينة على مستوى الساحات و المجالات العامة و المعالم
- المستوى المتوسط : أين تتم القراءة المورفولوجية على مستوى الوحدة العنصرية الممثلة في الحي.
- المستوى المحلي : حيث يتم الدراسة على مستوى الوحدة العنصرية (التحصيصة).

وفي هذا الفصل سنتطرق لكيفية تحليل المدن عن طريق مقاربة النمو العمراني .

1. مفهوم النمو العمراني :

إن مفهوم النمو العمراني اخذ من الدراسات المعمقة التي قام بها الباحث الايطالي" سافيريوموراتوري " وطورت من طرف الباحث "ج. كانيجيا" بحيث قام بتجديد تقاليد القراءة العضوية و الحيوية للمدينة اي (النظر إلى المدينة على أنها كائن عضوي أو حي).

الشكل رقم (01): يبين مراحل النمو العمراني لمدينة لندن (1840-1929).

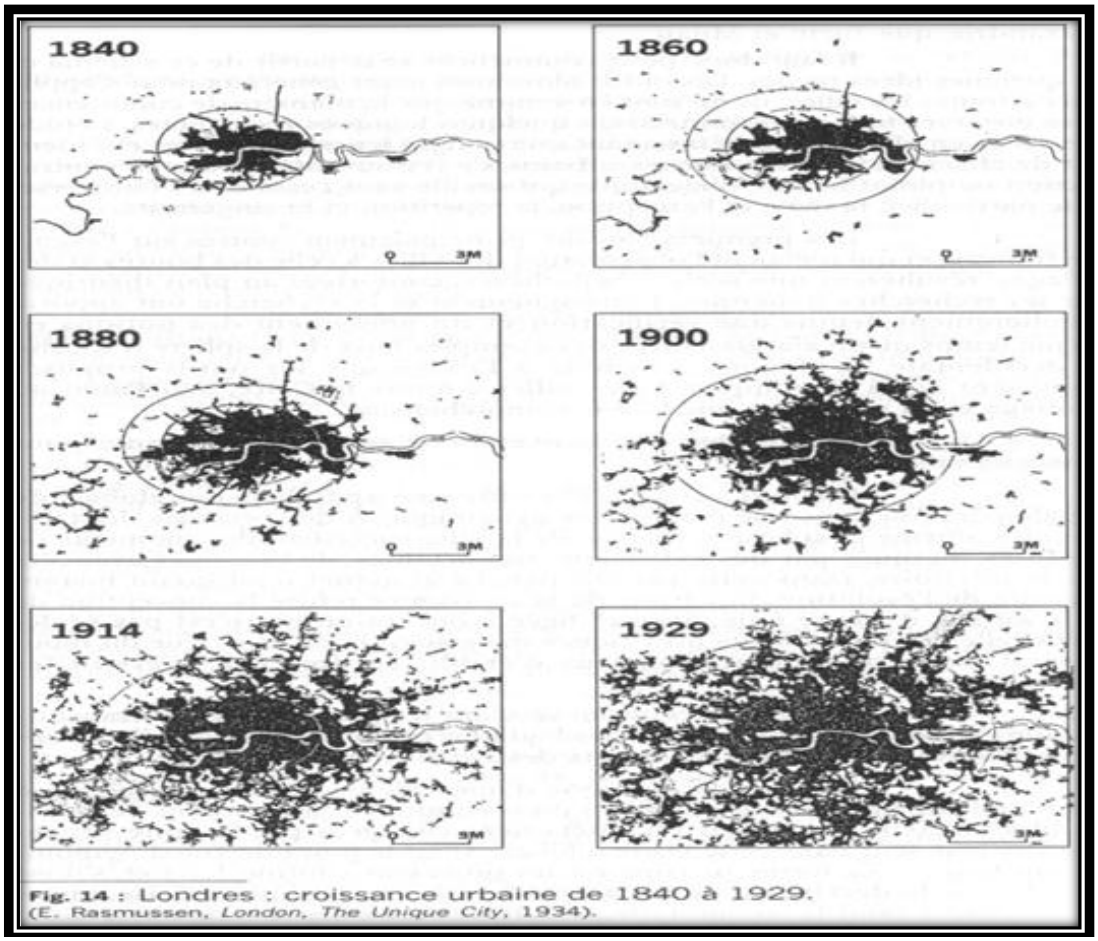


Fig. 14 : Londres : croissance urbaine de 1840 à 1929.
(E. Rasmussen, *London, The Unique City*, 1934).

"ANALYSE URBAINE" , Philippe panerai (1999) .P48

2. مفهوم النمو والتطور :

و نقصد هنا بالنمو مجموعة ظواهر توسع و تكيثف التجمعات السكنية التي تم تناولها من منظور بنياني ، ويعتبر وجهة نظر مورفولوجية ، حيث نجد ان النمو العمراني يساعد على تطوير وتقوية الجانب الاقتصادي في الوطن .

فالعلاقة بين النمو و التطور معقدة و إن كان أي إزدهار او أي نمو ضروري لمرافقة أو توجيه أو تسيير أو التحكم في النمو الحضري ، فإن ذلك يتطلب إرادة سياسية قوية و مستمرة.

3. أسباب دراسة عمليات النمو:

- تقدم فهما عاما للتجمعات السكنية من المنظور الديناميكي.
- التعرف على المدينة والخطة التي اتبعتها اثناء توسعها .
- التعرف على مراحل توسع المدينة و الاستفادة منها في التهيئة الحالية و المستقبلية.
- تحليل توسيع المدينة يقودنا إلى تشكيل صورة واضحة و شاملة للمدينة.

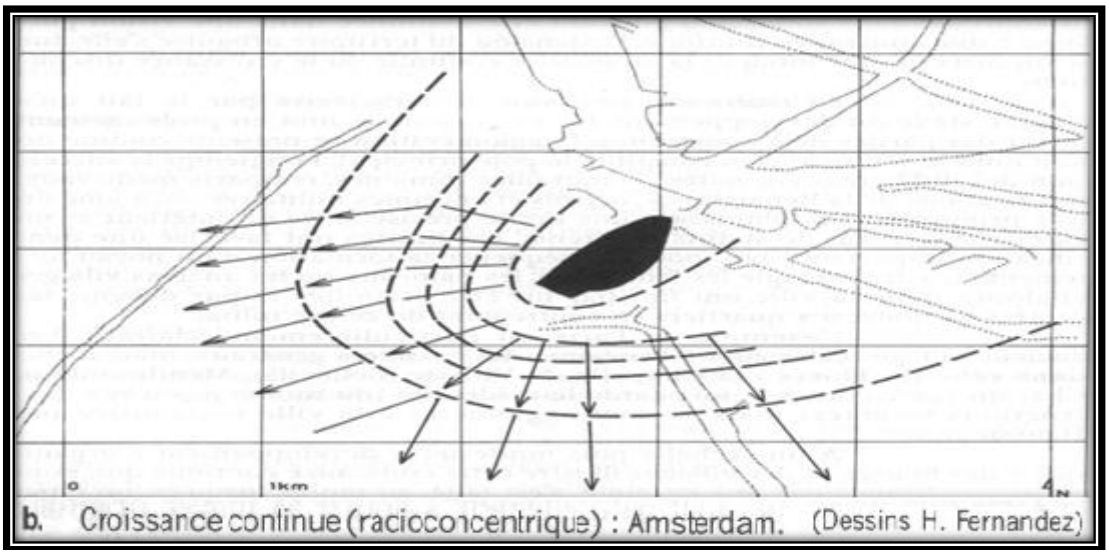
4. أنماط عمليات النمو:

تنقسم الى نوعين وهما :

1.4. النمو المستمر:

و يتعلق الأمر هنا بالاستمرار المجالي، هو عبارة عن إمتداد للأجزاء المبنية (القديمة و الجديدة) دون وجود أي تقطع في أي مرحلة من مراحل نمو المدن.

الشكل رقم (02): يبين النمو المستمر لمدينة أمستردام.



"ANALYSE URBAINE" , Philippe panerai (1999) .P 51

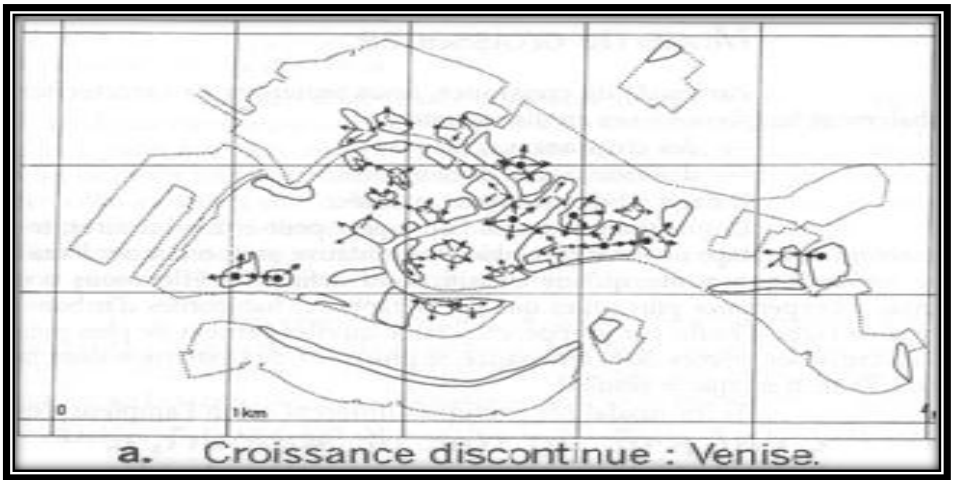
ويتميز النمو المستمر بأن التوسعات تتم في كل مرحلة من مراحل التطور بالتمديد المباشر للأجزاء المبنية أساسا ، و يمثل التجمع السكني و حدة حيث يشكل المركز القديم القطب الرئيسي، كما لعب منذ وقت طويل دورا رئيسيا.

ويتمثل النمو المستمر في إحتلال أكثر إنفتاحا للإقليم مراعيا المناطق الخضراء أو الفلاحية بين الأجزاء القديمة و التوسعات من هنا يؤكد إنفجار المدينة.

2.4. النمو المتقطع (غير مستمر):

هو عبارة عن توسع للمدينة لكنه غير متصل (غياب الإستمرارية) بسبب وجود عوائق طبيعية أو إصطناعية .

الشكل رقم (03): يبين النمو الغيرمستمرلمدينة فنيس (البندقية).



"ANALYSE URBAINE" , Philippe panerai (1999) .P 51

5. العناصر المنظمة :

إذا توسعت بعض المدن دون الأخذ بعين الإعتبار الموجودات العقارية و نتج عن ذلك أحياء غير متصلة جيدا مع بعضها البعض ، يرى الآخرون بأن توسعها منظم بموجودات طبيعية.

وتتم دراسة مسار النمو المنظم ، بمعنى آخر الذي تظهر فيه المدينة في كل مرحلة من تطورها بنية واضحة و مفهومة، بالكشف عن عدد من العناصر التي اسميناها بالعناصر المنظمة.

ويمكننا ملاحظة حول هذه العناصر موجودات مشابهة تتواجد في مدينة او اخرى ، و تتكرر و كأن هناك قوانين حركية أو شكلية تسير هذه الظواهر ، و منها جاءت محاولة ذكر العناصر بشكل عام من اجل تسهيل تحديدها قبل الخوض بشكل مفصل أكثر في تاريخ كل مدينة. و شكليا يظهر نمو المدن منظما بنوعين من العناصر :

- العناصر المنظمة للتوسع: الخطوط و الأقطاب.
- العناصر المحددة للتوسع: الحواجز و المعالم.

6. أدوات التحليل:

إن دراسة المدن في الواقع لهو أمر رائع على الرغم من اختلافاتها و هوية كل واحدة منها، فالظواهر العمرانية الموجودة بها، تناقض واضح أو بالأحرى قراءة جدلية التي تتأرجح دون توفيق بين العام و الخاص، القاعدة و الاستثناء، التكرار و التفرد.

ويظهر إذن أن البدء في تحليل مدينة أو تجمع سكني من خلال دراسة نموها هو أحد الوسائل لفهمها بشكل عام، و اتخذت الدراسات الأكثر تفصيلا التي أجريت فيما بعد مكانها في هذه الرؤية الإجمالية.

الأدوات المقترحة : خط النمو ، قطب النمو ، قطب وخط النمو، حاجز النمو ، حد النمو.

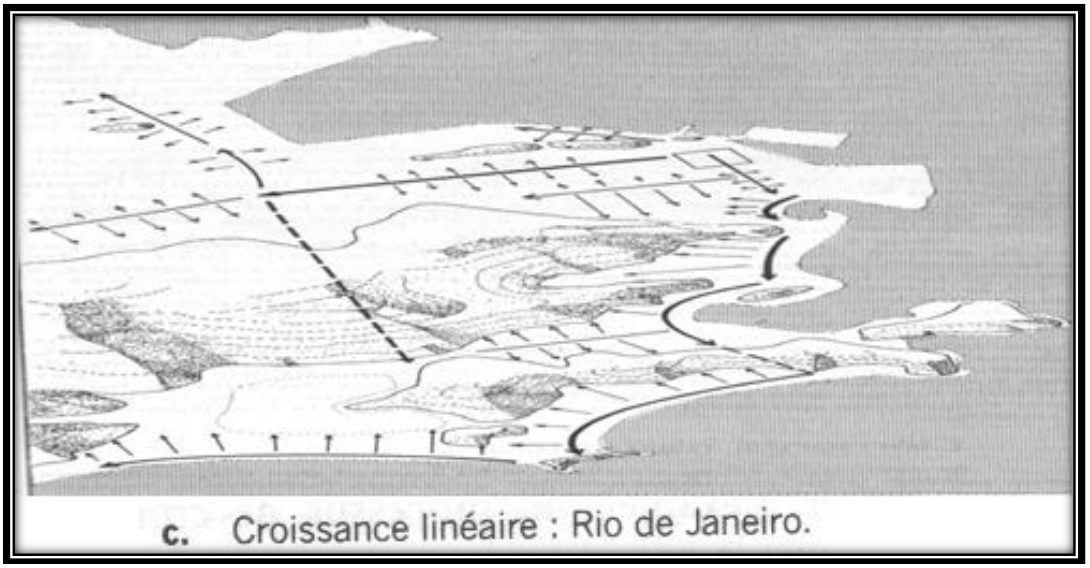
1.6. خط النمو :

هو دعامة النمو الذي يتم وفق إتجاه و أبسط مثال على ذلك هو الطريق الذي تنمو على طوله التجمعات السكنية و التي تصبح شارعا أو نهجا غير أن هناك عناصر أخرى عديدة يمكنها لعب نفس الدور: الوادي ، القناة ، سكة حديدية، طريق سريع، محور النصب التذكاري...الخ.

و يمكن أن تكون خطوط النمو« طبيعية » ، ونعني بذلك أنها موجودة في الموقع قبل التمدن، أو «إصطناعية» بمعنى آخر أنها صممت و أنجزت في بداية مرحلة التوسع المرتبطة بها.

و في كلتا الحالتين يتواجد هذين الخطين في إقليم ، فهي تكشف جغرافيته (طبيعة الأرض ، المناطق المعرضة للفيضان ...) و هي مستمدة من تضاريس الأرض و نادرا ما تتناقض الخطوط الكبرى لنمو التجمعات السكنية دون سبب مع التوجهات الكبرى للموقع.

الشكل رقم (04): يبين النمو الخطي لمدينة ريو دي جانيرو



"ANALYSE URBAINE" , Philippe panerai (1999) .P 52

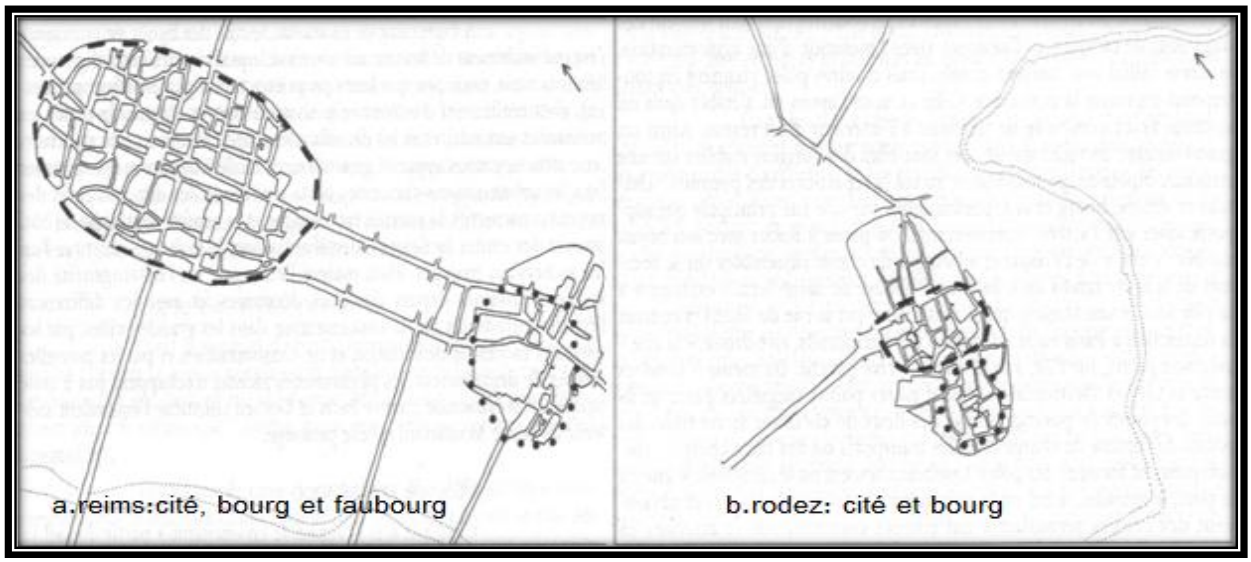
و هي تحمل طابع تاريخها الذي صنعته الاعمال السابقة: الفلاحة، الإنشاءات الرهبانية أو الإقطاعية، المنشآت المنجمية أو الصناعية. و في الواقع لا يرجع النمو فقط إلى التطور الأصلي للتجمع السكني لكن إلى الضغوط التي تحدث داخل شبكة المدن و البلدات على الصعيد المحلي أو الجهوي أو حتى أبعد من ذلك.

2.6. قطب النمو:

هو في نفس الوقت الأصل و التجمع الذي ينطلق منه النمو و النقطة المرجعية لهذا النمو، منظما بنية النسيج و النمو الثانوي (الذي يكون غالبا جزءا من النمو الخطي).

و يلعب غالبا المركز الأصلي هذا الدور في تطور تجمع سكني، غير أن أقطابا أخرى أتت مصاحبة لها منظمة النمو، كمفترق أو ملتقى الطرق ، الجسر أو القنطرة ، القمة ، المضيق أو الميناء إنشاءات و أصبحت مراكز ثانوية تجذب البناءات و النشاطات في نفس الوقت الذي تتوسع فيه نحو النواة القديمة.

الشكل رقم (05): يبين انواع قطب النمو .



"ANALYSE URBAINE" , Philippe panerai (1999) .P 57

ومهما كان السبب او الأصل ، فالمركز يتواجد ضمن النسيج كنقطة فردية، تجمع يشير إلى تراكم التاريخ و القيمة التجارية. و يقدم تخطيط الطرق و تباينها (ملتقى الطرق ، ملتقى الممرات ، النظام المشع) و عادة تفرع شبكة المواصلات و تمركز النصب التذكارية معالما (غير أنه على النقيض من ذلك يجب ان تكون هناك بساطة بعض الأخصائيين في التعمير من أجل الاعتقاد بأن كل تباين في الطرق و كل رسم لملتقى الممرات او المكان سيشكل قطبا يحوز على صفات المركز).

وبمجرد أن يزداد التجمع السكني قليلا و يتجاوز البنية الأولية للقرية الصغيرة ، على الحياد أو على النسق ، لا يصبح القطب يختصر في نقطة : المفترق أو ملتقى الطرق أو النصب التذكاري ، بل يمتد لمجموع النواة في نظم علاقات مع الأقطاب الأخرى أولا الخارجة عن المدينة ثم تتجمع و تنظم عن طريق نموها.

و من بين هذه الأقطاب البلدات القديمة ، حيث عرفت مدن كاملة ، وعلى صعيد التجمعات السكنية ، تطورها الذاتي قبل أن تضيع داخل المدن .

3.6. قطب وخط النمو:

تشكل الخطوط و الأقطاب أدوات ملائمة لفهم الظواهر الأساسية على صعيد الطريق و المزرعة و الضيعة كما الظواهر المركبة على صعيد التجمع السكني كله ، غير أنها إذا سمحت لنا في الحالة الأولى بوصف أدق للآلية البسيطة حيث يتم التوسع وحدة بعد وحدة ، قطعة بعد قطعة ، فإنها تخفي في الثانية تفصيل الشكل الخارجي للنسيج حتى لا نأخذ سوى بالاتجاهات الكبرى .

و في الحقيقة نادرا ما تنمو المدن دون كثافة ووفق خط واحد ، ومهما كان مثال الضاحية أو القرية ، الشارع أو القطاع نموذجيا فهو لا يمدنا سوى بحالات محدودة تهمل كثافة النسيج ، و هذا الأخير يمتد بدمج عدة خطوط و اتجاهات وفق مسارات مركبة تسمح لنا دراسة بعض المخططات الأولية من ضبطها.

و يمكن ان يكون القطب أصل النمو المتعدد الاتجاه« ممتد » من خلال عدة خطوط ، فهو صورة ملتقى الطرق أو التفرع أو شبكة العنكبوت أو الخطوط الرئيسية المتباعدة تدريجيا تاركة فراغات و مناطق فيها ضغط أقل و التي يمكن أن تبقى لفترة طويلة مناطق فلاحية أو قليلة البناء فيها.

كما أن الخط الرئيسي يمكن أن ينقسم ليشكل مفترق أو ملتقى طرق حيث تكون الفروع حسب الحالات متشابهة أو مختلفة ، فينشأ بذلك تدرج بين المحور الرئيسي و الخطوط الثانوية ، تدرج راجع للشبكات المذكورة سابقا و للضغوط التي تظهر.

كما أننا نلحظ تنظيمات تحدد تدرجا أكثر وضوحا كما هو الحال في سلسلة التنمية الثانوية التي تتم وفق اتجاه عمودي على المحور الرئيسي.

و على العكس من ذلك ، فبالاستفادة غالبا من الركيزة التي تشكلها التخطيطات الفلاحية حيث تمتد " طبيعيا " تجزئة منتظمة ، يمكن أن يأخذ الاتساع شكل سلسلة خطوط موازية مؤدية إلى تقدم الجبهة المشيدة على مساحات كبرى.

4.6. حد النمو:

هو عائق للنمو الخطي او نقطة توقف تحد النمو ، بشكل عام فإن هذا العائق يلعب دور معلم خلال فترة زمنية معينة ، يتم تجاوزه عند نهاية هذه الفترة و يصبح في الغالب قطبا.

ويمكننا ان نميز بين الحواجز « الطبيعية » الموجودة في الموقع و الطوبوغرافية و بين المعالم المبنية و التي تحد قصدا أو عن غير قصد توسع التجمع السكني.

5.6. حاجز النمو:

يتبادر إلى الذهن من خلال كلمة حاجز فكرة العقبة ، فالحاجز يتعارض مع انتشار نسيج حضري ، ويمكن أن يتشكل من :

- حاجز جغرافي: (خط التضاريس ، مجرى ماء، بحيرة ، غابة ، تغيير طبيعة الأرض ، ...الخ.)
- حاجز مبني (مصطنع): (مكان مسور ، خندق قناة ، طريق ، سكة حديدية ، خط ذو توتر عالي ، مزرعة كبيرة ...إلخ.)

و غالبا عند الحاجز المادي الذي يطبع الاختلاف الطوبولوجي بين إقليمين ، يتضاد فيه اختلاف إداري (حد الملكية للبلدية أو للمقاطعة ، منطقة محمية أو غير قابلة للتشييد) يؤكد على الصعيد القانوني الاختلاف البنياني و يزيد من نتائجه. غير أن العقبة الطبيعية تعطي أحيانا حدودا تستحق المشاهدة و أكثر ديمومة .

7. تجاوز الحدود:

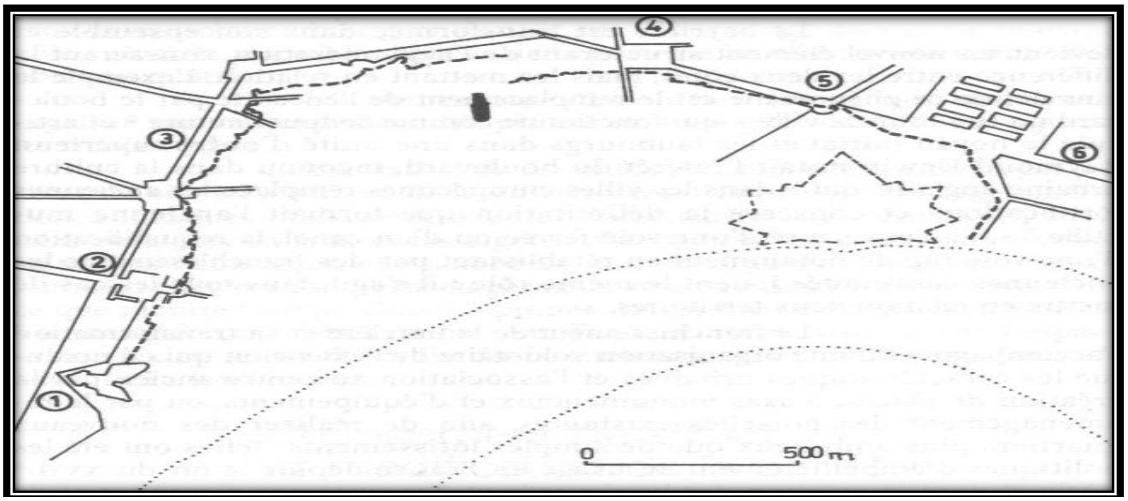
يحدد بقوة بنية النسيج وجود الحدود الفيزيائية في تطور التجمع السكاني. فالكشف عن الحدود القديمة إذن ليس مهمة علم الآثار فقط ، إذ تبقى آثارهم في رسوم الطرقات و المجزأة حتى و إن اختفى الحد المادي ، وهذا الأخير أيضا يظل أحيانا لوقت طويل للغاية.

و لكن أن يظل سور المدينة قائما أم لا أو أن يكون اليوم الحد القديم ظاهرا أم لا فإن تجاوزهم سجل مرحلة هامة في تطور التجمع السكني .

عندما تتجاوز المدينة حدا يمكن ان يرتكز النمو من جانبي العائق على عناصر تنتمي لنفس العائلة و حتى على تخطيطات ممتدة بالرغم من أنه و في اغلب حالات الاختلاف يظهر من يمكنه تحديد بصفة مؤكدة الجزء القديم و الامتدادات ، و تتضح هذه الاختلافات :

- داخل تكثيف النسيج : في الداخل النسيج القديم المشبع حيث استنفذت جميع احتمالات التنمية الداخلية في الخارج، نسيج جديد لا يزال رخوا حيث يمكن أن يحدث التكثيف لاحقا في حالة إنشاء عائق جديد .

الشكل رقم (06): يبين تجاوز الحدود و التحول من بنية الحضرية لمدينة بوردو



"ANALYSE URBAINE" , Philippe panerai (1999) .P 65

- في التخطيط الجيومتري للطرق و التجزيئات : استمرار نسيج الطرقات غير مضمون على كافة المستويات ، فقط الطرق الكبرى هي التي تمتد.
- في الأنماط الملاحظة من الجهتين التي تختلف ليس فقط باختلاف الفترة فقط و إنما بسبب وضعيات و أشكال خارجية محددة لكل جانب من العائق ، لكن العناصر المنظمة غالبا ليست نفسها من الجهتين و يؤدي تجاوز الحدود إلى تغيير طريقة النمو :
- تحول النمو التلقائي إلى نمو خطي خارجي وهو إنشاء ضاحية ، شارع على طول طرق الدخول
- تحول نمو خطي إلى نمو قطبي : تبرعم على المعلم الذي يصبح قطبا جديدا . أيضا تصبح الساحة الموجودة خارج باب المدينة مركزا لحي جديد.
- انفجار بعد العائق يفسح النسيج المنظم بدقة على تقسيم تربيعي لنسيج أكثر عشوائية الذي يستعيد التخطيطات الريفية ...
- تستدعي ملاحظة هذه الظواهر التساؤل عن حالة الموقع خارج العائق قبل توسع التجمع السكاني و دراسة بشكل دقيق خط الطرق و المسالك و التقسيم الريفي و القنوات و قنوات السقي و البنيات الموجودة : المزارع والفيلات و الأسقفيات و قديما ، المحطات و المصانع ، ...الخ في أيامنا هذه. في الواقع يشكل هذا الوضع البذرة الأولى لنسيج مستقبلي .

خلاصة الفصل :

تطرقنا في هذا الفصل لكيفية التحليل عن طريق مقاربة النمو العمراني ، فتبين لنا ان دراسة عمليات النمو مهمة لأسباب عديدة، فهي تعمل على الإدراك (الاستيعاب) الشامل للتجمع العمراني في إطار ديناميكي فمهما بلغت درجة الاستقرار فإن الوضع الحالي للمدينة هو مجرد مرحلة من التطور،لان دراسة النمو ترفض فكرة المدينة متحف، وتكشف ايضا عن نقاط التحول الثابتة عبر الزمن مع التعرف بعمق على المسارات للتحول و الاستفادة منها في التهيئة العمرانية حاليا.

فبداية تحليل أي مدينة أو تجمع عمراني بدراسة عملية النمو تعتبر وسيلة هامة لوضع صورة شاملة للمدينة. ثم يأتي التفصيل في إطار أنواع أخرى من التحليل و التي تأخذ معناها في تلك الصورة الشاملة التي رسمتها الدراسة التاريخية (دراسة النمو).